ISSN: 2588-2384 مجلة المعيار
مجلد: 22 عدد: 44 السنة: 2018

تنزيل الآيات على الواقع عند محمد الخضر حسين من خلال تفسيره "أسرار التنزيل"

مريم بوعافية
طالبة دكتوراه جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة–
bfiameriem.25@gmail.com
د.حدة سابق
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة–
tesnim4025@gmail.com

تاريخ الوصول: **2018/03/21** / القبول:05/05/ 2018 / النشر على الخط: 15/06/ 2018
Received: 21/03/2018 / Accepted: 05/05/2018 / Published online: 15/06/2018

ملخص البحث:

شهد العصر الحديث تدهور أحوال المسلمين في شتى الأصعدة، مما دفع بالعلماء إلى البحث عن علاج لقضايا واقعهم بوضع أسس وضوابط استنبطوها من خلال تفسيرهم للقرآن الكريم.

وكان للشيخ محمد الخضر حسين أحد رواد الإصلاح في العصر الحديث الأثر البالغ في ذلك، عاش حياته خدمة لكتاب الله عملا وفهما وتدبرا، وهو وإن لم يأت على تفسير القرآن الكريم كله إلا أنه تناول جملة من آياته حاول من خلالها وصف العلاج المناسب للعلل والمشاكل التي كان يعانيها أهل زمانه.

ويهدف هذا المقال إلى جمع جهوده في تنزيل الآيات على واقعه وعصره من خلال تفسيره "أسرار التنزيل".

الكلمات المفتاحية : القرآن؛ الواقع؛ الخضر حسين؛ أسرار التزيل

Features download the verses on the reality of Muhammad al -Khader Hussein through his interpretation of the secrets of downloading

Abstract

The modern era has witnessed the deterioration of the conditions of muslims at various levels, which led to the search for treament to the isses of their reality by laying the foundations and cintrols devloped through the interpretaion of the koran.

and sheikh Mohammed al-khader hussein, one of the pioneers of modern-day

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

reformers, had the greatest impact.

His dedicated himself to the book of God, work and understandanding and management, and if he did not come to the interpretation of the koran, yet he addressed a number of verses through which he tried to describe the treatment

suitable for the causes and problems that the people of his time suffred from,

the article aims to colled his efforts in interpreting the verses so as to comply with the reality and his era through the interpretation of "secrets of the revelation".

Inspiration, Interpretation, Actualty, secrets of the revelation, Muhammad al- khader Hussein.

مقدمة:

أنزل الله القرآن الكريم هداية للبشرية جمعاء، يهديهم به إلى ما فيه صلاح الدارين، هداية تخرجهم من ظلمات الجهل والوهن إلى نور العلم واليقين قال تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} المائدة 15- 16.

وأدرك المفسرون هذا المقصد العظيم في تفسيرهم لكتاب ربهم وتدبرهم لآياته قديما وحديثا، فجعلوا القرآن منهجا ودستور حياة، ثمّ اجتهد عدد منهم في ربط هداياته بعصرهم وواقعهم الذي يعيشونه سعيا منهم إلى إيجاد الحلول واستخراجها من منبعها الصافي لما يعانيه زمانهم من أمراض ومشاكل وجعلوا تفاسيرهم سبيلا لذلك.

من هؤلاء الأعلام الأستاذ الأكبر علامة بلاد المغرب شيخ الجامع الأزهر مضرب المثل في الفضل والعلم والجهاد والدفاع عن الإسلام في العصر الحديث محمد الخضر حسين، الذي اتخذ من آيات القرآن الكريم وسيلة لعلاج ما يعانيه عصره من علل ومشكلات وأظهر في ذلك تعاملا فريدا وفهما دقيقا لمضمونها وحُسن تنزيلها، محققا بذلك أسمى مقاصد القرآن الكريم وهي هداية الناس وإصلاح أحوالهم؛ وقد ظهر ذلك في مواضع متفرقة من تفسيره رأيت أن أجمع شتاتها في هذا البحث الذي جعلته بعنوان: (**جهود محمد الخضر حسين في تنزيل الآيات على الواقع من خلال تفسيره "أسرار التنزيل"**).

وقد قسمناه إلى مقدمة ومطلبين، خصصنا الأول للتعريف بالمفسر وتفسيره وتطرقنا لمسألة تنزيل الآيات على الواقع بإيجاز، أما الثاني فقد تناولنا فيه الجانب التطبيقي مع التركيز على أهم القضايا التي نزّل فيها المفسر الآيات على الواقع الذي يعيشه.

المطلب الأول: مقدمات تمهيدية.

يعتبر الشيخ محمد الخضر حسين أحد رواد الإصلاح في العصر الحديث وأعلامه، اتخذ القرآن الكريم مشكاة يستضاء بنورها ويهتدي بمعالمها من أجل النهوض بأمة طمست آثارها ونسيت حضارتها وتداعت عليها الأمم كما تداعت الأكلة على قصعتها، ففسر بذلك عددا لا بأس به من آي وسور القرآن الكريم جُمع معظمها في تفسيره المسمى بـ"أسرار التنزيل".

الفرع الأول: محمد الخضر حسين حياته وآثاره.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أولا: مولده ونشأته[1].

هو محمد الخضر بن الحسين بن علي بن عمر تونسي المولد والمنبت جزائري الأصل، ولد بمدينة نفطة[2] في 26 رجب سنة 1293هـ الموافق لـ21 جويلية 1873م، والده: الشيخ الحسين بن علي بن عمر "الطولقي"[3]، وأمه: حليمة السعدية بنت الشيخ مصطفى بن عزوز[4].

ولد الشيخ –رحمه الله– في أسرة عريقة اتصل نسبها بالنبي ﷺ اشتهرت بالعلم والدين والأدب والورع؛ وقد نشأ وترعرع في هذه البيئة الطيبة طالبا للعلم مهتما بالقرآن، فكانت زاوية جده الرحمانية مدرسته الأولى حيث حفظ القرآن الكريم وألمّ بمبادئ العلوم الشرعية واللغوية، ثم التحق بعد ذلك بجامع الزيتونة في أواخر سنة 1306هـ الموافق لـ1886م وكان من أرقى المعاهد الشرعية حينها ومنبعا من ينابيع العلم والمعرفة، وأكب على التحصيل والتلقي وهناك ظهرت سمات النجابة والنبوغ والحرص على تحصيل العلوم الدينية واللغوية.

تخرج من الزيتونة سنة 1316هـ الموافق لـ1898م، وألقى فيها دروسا منوعة في فنون مختلفة.

ثانيا: رحلاته في طلب العلم وتعليمه[5].

يجد الناظر في سيرة الخضر –رحمه الله– أنه قد طوّف بالمشرق والمغرب رغبة في العلم بين التحصيل والتعليم، ويمكن تلخيص حياة الشيخ في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: وتمثلت في تلك الفترة التي كان الشيخ مستقرا فيها في مسقط رأسه "تونس"، أي من مولده إلى أن حكم عليه الاستعمار الغاشم بالإعدام، وقد سبق الحديث عنها في المولد والنشأة.

المرحلة الثانية: عرفت هذه المرحلة تنقل الشيخ –رحمه الله– بين مسقط رأسه وبين عدد من الدول خاصة "سوريا" التي كانت وجهته الأولى عام 1912م بعد أن حكم عليه الاستعمار الفرنسي بالإعدام لاشتغاله بالسياسة ودعوته إلى التحرير ورفضه للمناصب التي عُرضت عليه من قبل الحكومة الفرنسية، وبقي يتنقل بينها وبين تونس إلى ديسمبر 1912م حين قرر الاستقرار بدمشق واختارها موطنا ثانيا له وامتدت إقامته بها إلى سنة 1920م.

درّس في هذه الفترة بالمدرسة السلطانية العربية، وتعرف على عدد من علماء الشام أمثال الشيخ جمال الدين القاسمي ومحمد بهجة البيطار...

وقد زار بالإضافة إلى الشام عددا من الدول منها موطنه الأصلي "الجزائر" سنة 1321هـ/ 1903م، وعاد إليها في السنة الموالية وطاف بعدد من مدنها (عنابة وباتنة والعاصمة).

---

(1) _ ينظر: الأعلام، الزركلي، ج6، ص113/ ترجمة الإمام محمد الخضر حسين، جمع: علي الرضا الحسيني، ج1، ص11 وما بعدها.

(2) _ مدينة بإفريقية (تونس) من أعمال الزاب الكبير، عرفت من قديم عصرها بـ"الكوفة الصغرى" لما احتوته من علماء وأدباء وشعراء، وحتى يوم الناس هذا. ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج5، ص296 / ترجمة الإمام محمد الخضر حسين، جمع: علي الرضا الحسيني، ج1، ص11.

(3) _ نسبة إلى "طولقة" من دوائر بسكرة بالجزائر.

(4) _ فأبوها شيخ الطريقة الرحمانية عند احتلال الجزائر من طرف الفرنسيين (1843م- 1844م) هاجر إلى "نفطة" في تونس وأسس بها زاوية رحمانية أصبحت ذات شهرة واسعة في العلم، وكان والد محمد الخضر مريدا خاصا للشيخ مصطفى. ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم، ج4، ص146.

(5) _ الأعلام، الزركلي، ص113 وما بعدها / تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم، ج3، ص217 / ترجمة الإمام محمد الخضر حسين، جمع: علي الرضا الحسيني، ج1، ص12 وما بعدها.

.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما زار عددا من البلدان منها: مالطا، الإسكندرية، القاهرة، يافا وحيفا، بيروت، واسطنبول.

وتميزت هذه الفترة برسوخ قدم الشيخ في عدد من الفنون، واحتلاله مكانة رفيعة بين أهل العلم، وغزارة نشاطه العلمي ونضاله السياسي من خلال محاربته للاستعمار الفرنسي بكل ما أوتي من قوة.

المرحلة الثالثة: بعد احتلال فرنسا للشام عام 1338هـ/ 1920م استقر بمصر وتحصل على الجنسية المصرية واستقر بها إلى آخر حياته.

ارتقى هناك إلى أعلى المناصب العلمية، فحصل على عضوية هيئة كبار العلماء برسالته "القياس في اللغة العربية" سنة 1370هـ/ 1950م وصار أستاذا للأزهر ومدرسا في كلية أصول الدين، وفي 26 ذي الحجة 1371هـ الموافق لـ 1952/12/16م اختير لمنصب مشيخة الأزهر،كما اختير عضوا في مجمع اللغة العربية وشكل عددا من الجمعيات الإسلامية والوطنية، وساهم في تأسيس وإصدار وتحرير المجلات العلمية مثل مجلة لواء الإسلام.

استقال الشيخ من مشيخة الأزهر في 2 جمادى الأولى 1373هـ/ 1954م، ليتفرغ بعد ذلك للبحث والكتابة والمحاضرة، وهذه الفترة تميزت بغزارة الإنتاج الفكري حتى سُميت بمرحلة المجد الثقافي والشهرة العلمية.

فهذه لمحات موجزة من سيرة الشيخ العطرة الحافلة بالانجازات السامية والتضحيات الغالية، حيث كان غيورا في ذلك على دينه مخلصا لوطنه، عدوا للاستعمار الغاشم الظالم.

ثالثا: عصره.

عاش محمد الخضر –رحمه الله– في الربع الأخير من القرن التاسع عشر للميلاد، وإلى منتصف القرن العشرين، وهو ما يُعبر عنه بالعصر الحديث، فقد ولد في الفترة التي شهد العالم الإسلامي تخلفا وتراجعا كبيرا في شتى الميادين، وابتعدت فيها الأمة كثيرا عن دينها وتأخرت عن ركب العلم والتقدم، في مقابل تقدم وتحكم الجاهلية الغربية وغزو الاستعمار بلاد المسلمين لاستغلال مواردهم من جهة، ونفث الأفكار والمذاهب الغربية المسمومة من جهة ثانية.

فلم تكن الحالة السياسية مستقرة في عصره، والاستعمار الفرنسي الغاشم يبسط نفوذه في معظم البلاد العربية والإسلامية، وعلى رأسها بلاد الجزائر مما تسبب في هجرة أسرة الشيخ نحو تونس التي لم تسلم أيضا من بطشه مما اضطر الشيخ للخروج إلى الشام والتي سقطت هي الأخرى في شباكه، ليستقر بعدها في مصر التي عرفت انتشار دعاة الإلحاد وأتباع الثقافة الاستعمارية كغيرها من البلاد العربية.

كما شهدت الحالة الاجتماعية تقهقرا كبيرا وتدهورا مستطيرا؛ فلقد خلق الاستعمار بحكم وجوده في البلاد المستعمرة واقعا جديدا، ظهرت فيه فرق عقدية ضالة مناقضة لأصول الشريعة ونشطت هذه الأخيرة وصار لها أتباع منها: العلمانية والقاديانية والبهائية، كما استفحل في المجتمع الفقر والجهل والمرض زيادة على بعض العادات السيئة كالرشوة والغش...

وقد أثر هذا الواقع المؤلم في حياة محمد الخضر –رحمه الله– وفي ما خلفه من آثار، وكانت غيرة الشيخ على عقيدته ودينه، وحرصه على إصلاح واقعه والدعوة إلى العودة إلى تعاليم ديننا الحنيف والابتعاد عن التبعية الغربية ظاهرة، يقول "نود من صميم قلوبنا أن تكون نهضتنا المدنية راسخة البناء رائعة الطلاء محمودة العاقبة، ولا يرسخ بناؤها ويروع عطاؤها وتحمد عاقبتها إلا أن تكون موصولة بنظم الدين مصبوغة بآدابه"[1].

---

[1] _ رسائل الإصلاح، محمد الخضر حسين، ص116.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فأقبل على القرآن الكريم مدركا صلاحيته وإصلاحه لكل زمان ومكان، وراح يكشف عن ما أفرزه عصره من علل ومشكلات ويصف دواء الداء في ثنايا تفسيره لآيات القرآن الكريم.

خامسا: مؤلفاته ووفاته.

أ. مؤلفاته: ترك الخضر تراثا علميا زاخرا في فنون شتى فلم "يطرق باب من أبواب العلم إلا كان سيدا مهابا...ولا أدل على ثرائه العلمي من هذا الفيض الرائع لقلمه، ونتاج فكره في الأخلاق والاجتماعيات، وأصول الدين والفقه، ومباحث السيرة النبوية، وترجم الرجال والبحوث التاريخية، ومباحث اللغة وصناعة الأدب"[1] وهذه الآثار منها ما ألفه ككتاب مستقل، ومنها ما جُمع له بعد وفاته، وإليك بعضها:

- "أسرار التنزيل تفسير آيات قرآنية كريمة" جُمع فيه جل تراثه التفسيري، والذي سيأتي التعريف به في فرع لاحق.

- بلاغة القرآن: وهي مجموعة من المقالات تتصل بالقرآن الكريم.

- رسائل الإصلاح: مقالات هادفة عالج فيها أهم قضايا مجتمعه، وقد ضمنها جملة من العناوين منها: "الإلحاد، كلمة في المسكرات، ضلالة فصل الدين عن السياسة، محاكاة المسلمين للأجانب..."

- نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، رد فيه الشيخ على علي عبد الرزاق الذي دعا إلى بدعة فصل الدين عن السياسة وادعى أن الخلافة ليست من الدين الإسلامي.

إلى جانب عدد من البحوث والمقالات التي نشرت في مجلة الأزهر وغيرها.

وقد اعتنى ابن أخيه "علي الرضا الحسيني" بجمع وضبط أعماله الكاملة في موسوعة، صدرت طبعتها الأولى عن دار النوادر في خمسة عشر مجلدا سنة 1431هـ/ 2010م، وفيها من النفائس والفوائد ما لا يستغني عنه كل محب للعلم طالب له.

ب. وفاته

انتقل محمد الخضر حسين للرفيق الأعلى مساء يوم الأحد 13 رجب 1377هـ الموافق لـ 22 فيفري 1958م، ودفن بوصية منه في مقبرة صديقه أحمد تيمور باشا[2].

الفرع الثاني: التعريف بتفسير "أسرار التنزيل".

باشر محمد الخضر -رحمه الله- في مرحلة متقدمة من عمره في وضع تفسير محكم لكتاب الله تعالى، بعد أن حاز على علم غزير وقدرة على التصرف في فنون العلم والمعرفة، وقد جاء هذا الفرع للتعريف بتفسيره في بطاقة فنية مختصرة.

أولا: اسمه.

---

[1] _ الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، مقدمة علي الرضا الحسيني، ص4.

[2] _ الأعلام، الزركلي، ص114.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جمع الأستاذ علي الرضا الحسيني الآيات التي فسرها عمه الخضر في سِفْر سماه "**أسرار التنزيل تفسير آيات قرآنية كريمة**"[1].

ثانيا: مضمونه.

جُمع في "أسرار التنزيل" معظم تراث الشيخ التفسيري وقد تضمن تفسير مجموعة من السور والآيات وهي كالآتي:

- تفسير سورة الفاتحة[2].

- تفسير 192 آية الأولى من سورة البقرة أي من أول السورة إلى قوله تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ}البقرة:193[3].

- تفسير خمس آيات من سورة آل عمران[4].

من قوله تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ...}آل عمران: 52 إلى قوله: {...فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}آل عمران: 55، أي: الآيات 52، 53، 54، 55.

وكذا من قوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ...} آل عمران: ١٥٩ إلى قوله: {...إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}آل عمران: 159 أي: الآية 159.

- تفسير ثلاث آيات من سورة الأنفال[5].

من قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...}الأنفال: 24 إلى قوله: {...لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}الأنفال: 26 وهي الآيات: 24، 25، 26.

- تفسير أربع آيات من سورة يونس[6].

من قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}يونس: 62 إلى قوله: {إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}يونس: 65.

- تفسير آيتين من سورة الحج[7].

من قوله تعالى: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا..}الحج: 27 إلى قوله تعالى: {...فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ}الحج: 28 وهما الآيتين: 27، 28.

- تفسير خمس آيات من سورة (ص) [8].

---

[1] _ ينظر: موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، ج1.

[2] _ أسرار التنزيل، محمد الخضر، ج1، ص5.

[3] _ أسرار التنزيل، محمد الخضر، ج1، ص13 وما بعدها.

[4] _ المصدر نفسه، ج1، ص377 وما بعدها.

[5] _ المصدر نفسه، ج1، ص395 وما بعدها.

[6] _ المصدر نفسه، ج1، ص405 وما بعدها.

[7] _ المصدر نفسه، ج1، ص413 وما بعدها.

[8] _ المصدر نفسه، ج1، ص421 وما بعدها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من قوله تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ}ص: 21 إلى قوله تعالى: {فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ}ص: 25.

ثالثا: قصة تأليفه[1].

وضع الشيخ –رحمه الله– تفسيره في آخر حياته بعد أن بلغ قمة مجده العلمي وحصل على ما يؤهله لتدبر كتاب الله، حيث أصبح له باع علمي في مختلف العلوم الإسلامية واللغوية.

بدأ بنشر تفسيره في أول عدد من مجلة "لواء الإسلام" التي كان رئيسا لتحريرها بتاريخ الأول من شهر رمضان عام 1366هـ الموافق لـ يوليو 1947م، وقد تجاوز السبعين من عمره واستمر في هذا العمل الجليل حتى قارب عمره الثمانين عاما وتحت وطأة الشيخوخة توقف عن إكمال ما شرع فيه من تفسير وكان آخر ما كتبه ما نشره في العدد الثاني عشر من السنة الرابعة والصادر في شهر شعبان لعام 1370هـ الموافق لشهر مايو 1951م.

وقد جمع هذه المحاضرات والمقالات بعده ابن أخيه في كتاب مستقل طُبع مفردا سنة 1396هـ، ثم طُبع في المجلد الأول من موسوعة الأعمال الكاملة للشيخ محمد الخضر حسين وجاء في أربعمائة واثنتين وثلاثين صفحة، وسماه: **"أسرار التنزيل تفسير آيات قرآنية كريمة"**.

الفرع الثالث: مسألة تنزيل الآيات على الواقع.

يُعد الحديث عن مسألة "تنزيل الآيات على الواقع" ذو أهمية بالغة خاصة في العصر الحديث أين اتسعت الهوة بين القرآن الكريم والواقع المعاصر، حيث اشتدت الحاجة إلى ربط الناس بكتاب ربهم وبيان أن آيات القرآن الكريم صالحة لكل زمان ومكان.

وهو ما يعبر عنه محمد الخضر قائلا: "الشريعة الغراء تساير كل عصر وتحفظ مصالح كل جيل"[2].

وسيأتي في هذا الفرع بيان لمعنى "تنزيل الآيات على الواقع" وإشارة إلى أنواعه، ثم التعريج على جملة من فوائده، وهي كالآتي:

أولا: معنى تنزيل الآيات على الواقع.

يمكن القول أن مسألة "تنزيل الآيات على الواقع" تطلق ويراد منها: **"اجتهاد المفسر في الكشف عن الرابط بين الآية القرآنية وما يقابلها من الأحداث الواقعة في زمنه من خلال تفسيره للآية، بغية إيجاد العلاج القرآني لها"**.

فالمفسر يُعمل فكره ورأيه في إيجاد العلاقة بين آيات القرآن الكريم وواقعه المعاصر، وذلك من خلال تقريب معاني الآيات وربطها بواقع الناس، في محاولة للسير وفق منهج قرآني في علاج قضايا مجتمعه.

وإعماله للرأي إنما يكون وفق ضوابط لأن "كل رأي في الدين لا يستند إلى ما كان النبي صلى الله علية وسلم يتلوه من الآيات، ويعلمه من الكتاب والسنة، أو من الأصول المستمدة منهما على وجه معقول، فهو رد على صاحبه"[3].

---

[1] _ أسرار التنزيل، مقدمة علي رضا الحسيني، ص3 –بتصرف–.

[2] _ الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، ص5.

[3] _ أسرار التنزيل، محمد الخضر، ص239. وينظر ضوابط تنزيل الآيات على الواقع في رسالة: تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين –دراسة وتطبيق–، عبد العزيز الضامر، ص89 وما بعدها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثانيا: أهمية تنزيل الآيات على الواقع في تفسير القرآن الكريم.

تكتسب مسألة "تنزيل الآية على الواقع" أهمية بالغة سواء بالنسبة للمفسر، أو بالنسبة لحاجة الناس إليها لصلاح أحوالهم في الدنيا والفوز بالرضوان في الآخرة.

1. أهمية تنزيل الآيات على الواقع بالنسبة للمفسر، وتكمن في النقاط الآتية[1]:

- توثيق أبرز الأحداث التاريخية في عصره.

- معرفة موقفه من الحدث النازل في زمانه، وكيف تعامل معه.

- التعرف على شيء من سيرته الذاتية.

2. أهمية تنزيل الآيات على الواقع في حياة الناس وواقعهم، ويمكن تلخيصها فيما يلي[2]:

- زيادة توضيح معاني الآيات وتقريبها للأفهام والعقول، فانطباق معنى الآية على واقع يراه الناس عيانا يزيد في إدراكهم لها وفهم معناها ورسوخه في أذهانهم.

- ربط المسلم المعاصر بكتاب الله تعالى، وإزالة الفجوة بينه وبين القرآن، فإذا شاهد المسلم تنزيل الآيات عند المفسرين على واقعهم، استفاد منها وكانت خير حافز ومعين على تنزيل الآيات على واقعه.

ثالثا: مسلك محمد الخضر حسين في تنزيل الآيات على واقعه.

بعد تتبعي لتفسير "أسرار التنزيل" واستخراج النماذج التطبيقية التي نزّل فيها المفسر الآيات على واقعه، يمكن القول أنه سلك في ذلك دربين رئيسين:

الأول: **التصريح** وذلك من خلال إطلاقه لجملة من العبارات، مفادها أن مضمون الآية ومعناها ينطبق على واقعه وعصره.

فمثلا بعد تفسيره لمفردات قوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} الأنفال: 26.

يقول: "نرى أولئك الرجال يؤمنون بالله إيمانا صادقا، ويصبرون للبلاء يصيبهم في سبيل الحق...ويأبون أن يلقوا الضالين أو الفاسقين بالمودة...فنقتبس من أن سنة الله في القوم الذين يتحفظون بهذه الخصال أن يجعلهم في أمن ومنعة وعزة، وعيشة راضية، **ولا عجب أن نرى المسلمين اليوم كثرة**، وهم فيما نرى ونسمع من استضعاف، فقد أضاعوا جانبا عظيما من الخصال التي تقوم عليها سنة الله في تخليص القوم من عدو يضع يده فوق أيديهم"[3].

الثاني: **التلميح والتعريض** يُستنبط ذلك من تلك الإشارات التي تلمحها في ثنايا تفسيره للآيات، حيث يشير إلى أن معنى الآية حاصل في زمنه، أو أن واقعه مخالف لمعنى الآية.

---

[1] _ تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين –دراسة وتطبيق–، عبد العزيز الضامر، ص79- 82.

[2] _ تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم، يحي بن محمد زمزمي، مجلة البحوث والدراسات الإسلامية، العدد الرابع، السنة الثانية، ص25. ص82.

[3] _ أسرار التنزيل، محمد الخضر، ص403- 404.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبعد تتبعي للتفسير وجدت أنه كثيرا ما يتحدث مثلا عن العدو على سبيل التلميح يريد به الاستعمار الفرنسي ولم يصرح به، وربما يرجع ذلك إلى كرهه الشديد لهم وكذا كونه ملاحق من قبلهم والناس في أمس الحاجة إلى جهوده الإصلاحية المعادية للاستعمار.

فعندما عرض مثلا لتفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}الأنفال: 24 نجده يتحدث عن جهاد العدو قائلا: "ومما يحيي المؤمنين الحياة الطيبة: جهاد العدو المحارب، ذلك أن العدو إذا استولى على الأمة، قبض على زمام أمرها بيد غاشمة، وأقام بينها وبين القوة والعزة حواجز، فلا تعيش إلا في ضعف وذلة وند العيش، وقتال العدو يدفع عنه الكارثة، ويمكنها من أن تفوز بسلامة أعراضها وأموالها، وتتمتع بالحرية في إدارة شؤونها، وابتغاء وسائل رفعتها، وإقامة شعائر دينها، والتقاضي إلى أحكام شريعتها، وذلك عين الحياة الطيبة في الدنيا، ووسيلة الحياة الطيبة في الأخرى"[1].

المطلب الثاني: تنزيل الآيات على الواقع في تفسير (أسرار التنزيل).

عُرف الشيخ محمد الخضر –رحمه الله– بتعلقه بكتاب الله وارتباطه به فهما وتفسيرا وتدبرا واستنباطا من جهة، وبانشغاله بقضايا مجتمعه من جهة أخرى فقد كان متبصرا بأحوال الواقع المعاصر له؛ واقع يشتكي إهمال تطبيق التعاليم الدينية بعد أن أصبحت معظم الدول الإسلامية تحت وطأة الاستعمار الذي سار المبتدعة على نهجه فظهرت تأويلات منحرفة للقرآن الكريم من بعض المدعين للتفسير ممن ليسوا أهلا له ووجدت القبول بين أوساط الناس، يقول الإمام: "ظهر أشخاص قل في العلم نصيبهم، أو خف في علم الشريعة وزنهم، فتناولوا القرآن بعقول لا تراعي في فهمه قوانين البلاغة، ولا تدخل إلى تفسيره من باب السنة الصحيحة، فأدخلوا في تفسير القرآن آراء سخيفة، ومزاعم منبوذة، ووجدت هذه الآراء وهذه المزاعم عند بعض العامة وأشباه العامة متقبلا"[2].

لقد شخص الخضر علل زمنه وعلم أن الدواء في حسن تدبر آيات القرآن الكريم والعمل به، فلجأ إلى التفسير وكان يبحث في الآيات التي فسرها في مقالاته عن أوجه الارتباط بينها وبين عصره والواقع الذي يعيشه بغية إيجاد الحلول القرآنية الناجعة والتي يوظفها في إصلاح مجتمعه، فأظهر بذلك دور التفسير في معالجة ما يقتضيه الواقع.

وسنقتصر في هذا المطلب على تلك المواضع التي قرن فيها الشيخ بين الآيات القرآنية والوقائع المعاصرة له في تفسيره المسمى "أسرار التنزيل"[3]، وبعد تتبعنا لها في محاولة للإيجاد تقسيم لها وجدنا أن معالجته لواقعه شملت ثلاثة جوانب رئيسية:

الفرع الأول: الجانب العقدي.

يقول الإمام: "من كفر بالله وعصاه فقد أفسد في الأرض، وإنما تصلح الأرض بالتوحيد والطاعة"[4]، هذا هو المبدأ الذي اعتمده الخضر في دعوته إلى الإصلاح والتجديد وجسده في تفسيره لآيات القرآن الكريم، فقد كان إرشاد مجتمعه إلى العقيدة السليمة وتحذيره من البدع ودعوته إلى التحلي بالآداب الإسلامية أحد أهم المقومات التي بُني عليها تفسيره ومن أكثر المواضع التي نزل فيها الآيات على واقعه والتي جمعت شتاتها ورتبتها كالآتي:

أولا– الرد على منكري معجزات الأنبياء وبيان العقيدة السليمة:

---

[1] _ أسرار التنزيل، محمد الخضر، ص399.

[2] _ بلاغة القرآن، ص143.

[3] _ وذلك لأن الشيخ اهتم بمسالة التنزيل في باقي كتاباته وردوه: مثل كتاب (بلاغة القرآن) و(الدعوة إلى الإصلاح).

[4] _ أسرار التنزيل، ص29.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شهد العصر الحديث انتشار دعاة الإلحاد الساعين لهدم أسس التوحيد ومقوماته، خالفوا الشريعة وتأولوا الآيات على غير وجهها الصحيح ومن ذلك إنكارهم للمعجزات التي أيد الله بها الأنبياء عليهم السلام فكانت علامة على صدق دعوتهم، وقد تصدى محمد الخضر لهؤلاء وأمثالهم مستعينا بالفهم السديد لآيات القرآن الكريم وفق ما تقتضيه العقيدة السليمة، يقول في تفسيره لقوله تعالى: {فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُون}البقرة:50 "العقيدة السليمة تقضي بأن تفهم واقعة انفلاق البحر لموسى وقومه على أنها معجزة كونية، لا أنها حادثة طبيعية منشؤها المد والجزر؛ كما يزعم بعض من لا يبالي أن يظهر برأي يدفعه صريح القرآن"[1].

ثانيا– التحذير من الفرق الضالة التي ظهرت في زمانه ببيان أسس اعتقاداتهم الشركية:

عاصر محمد الخضر حسين ظهور عدد من الطوائف العقائدية المناوئة للإسلام وعلى رئسها القاديانية والبهائية "اللتان كانتا نتاجا وصناعة استعمارية أراد بها أعداء الإسلام ضربه من الداخل وبواسطة أناس يتسَمَّون بأسماء إسلامية"[2].

وقد تكفل الشيخ بالرد عليهما معتمدا في ذلك على الآيات القرآنية لبيان فساد معتقداهم والتحذير من مظاهر الشرك المعاصرة له وأخذ ذلك حيزا كبيرا من اهتمامه[3]، فعند تفسيره لقوله تعالى: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}البقرة: 22 أدخل من يعتقدون إلهية زعمائهم في معنى الآية قائلا: "الأنداد: جمع ند، والند: المماثل المكافئ، وفسر في الآية بمعنى: الشريك، فكل من عظم مخلوقا التعظيم الذي لا يليق إلا بالله تعالى، فقد اتخذ ذلك المخلوق ندا لله، وتتناول الآية مشركي العرب لعبادتهم الأصنام...والمجوس لعبادتهم النار...

وممن يجعلون لله أندادا: أولئك الفرق الضالة الذين يعتقدون إلهية زعمائهم؛ كطائفة البهائية الذين يعتقدون إلهية زعيم مذهبهم""[4].

نجد الشيخ هنا كيف وظف تفسير القرآن الكريم في دعوة أهل زمانه إلى العقيدة السليمة، وذلك من خلال تحذيره من العقيدة الشركية للفرق المعاصرة.

ثالثا– بيان واجب دعاة الإصلاح في عصر ابتعد فيه الناس عن التوحيد الخالص:

عُني الإمام محمد الخضر بإصلاح مجتمعه وتطهيره من البدع من خلال تفسيره لآيات القرآن الكريم، ومن ذلك أنه لما رأى ما يصدر من بعض الزائرين لقبور الصالحين من تصرفات تتنافى مع الأدب مع الله، بين واجب دعاة الإصلاح في إعادة الناس إلى التوحيد الخالص في تفسيره لقوله تعالى: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}البقرة: 22 فقال: "ومن الواجب على دعاة الإصلاح: أن يراقبوا أحوال من يزورون قبور الصالحين، حتى إذا أحسوا من زائر المبالغة في تعظيم صاحب القبر؛ كالانحناء أمامه في هيئة الراكع أو الساجد، نبهوه برفق، وأنقذوه من الوقوع في اعتقاد أن الولي يملك لنفسه أو لغيره نفعا أو ضرا، وأعادوه إلى ما يوافق التوحيد الخالص؛ من أن النفع والضر من طريق غيبي إنما هو بيد الله الذي بيده ملكوت كل شيء"[5].

رابعا– تحسره على أهل زمانه الذين أضاعوا جانبا عظيما من الخصال التي تقوم عليها سنة الله في تخليص القوم من العدو:

إن الواقع الذي آل إليه المسلمون في العصر الحديث من ضعف وذل وانحطاط رغم كثرتهم، من أهم ما ركز عليه المصلحون في دعوتهم، حيث

---

[1] _ أسرار التنزيل، ص98.

[2] _ تفسير محمد الخضر حسين لآي القرآن وملامح الإصلاح فيه، بن ديمية جيلالي، ص109.

[3] _ حتى أنه ألف الشيخ رسالة خاصة في الرد عليهما تحت عنوان: "القاديانية والبهائية".

[4] _ أسرار التنزيل، ص366.

[5] _ المصدر نفسه، ص366.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اجتهدوا في بيان الأسباب وطرق العلاج من مقتضى النصح للأمة، والإمام محمد الخضر واحد من هؤلاء الدعاة المصلحين الذين سخروا حياتهم في سبيل النهوض بالأمة وإرشاد المسلمين إلى ما فيه فلاحهم من خلال تفسيره لآيات الذكر الحكيم، ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: {واذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}الأنفال:26 قال بعد تفسيره لمفردات الآية: "نرى أولئك الرجال يؤمنون بالله إيمانا صادقا، ويصبرون للبلاء يصيبهم في سبيل الحق...ويأبون أن يلقوا الضالين أو الفاسقين بالمودة...كانوا ينظرون إلى عدوهم بعين الحذر، ويأخذون بأسباب النجاة ما استطاعوا، إلى نحو هذا من الخصال التي هداهم إليها الكتاب الحكيم.

فنقتبس من أن سنة الله في القوم الذين يتحفظون بهذه الخصال أن يجعلهم في أمن ومنعة وعزة، وعيشة راضية، ولا عجب أن نرى المسلمين اليوم كثرة، وهم فيما نرى ونسمع من استضعاف، فقد أضاعوا جانبا عظيما من الخصال التي تقوم عليها سنة الله في تخليص القوم من عدو يضع يده فوق أيديهم"[1].

فالإمام هنا بين أن ضعف المسلمين في عصره إنما هو نتيجة تخلّيهم وابتعادهم عن الخصال التي تقوم عليها سنة الله في تخليص القوم من عدو سلب الأرض وهتك العرض، في محاولة للربط بين أحوال واقعه وبين الآيات القرآنية وما تضمنته من سنن ربانية.

خامسا: التحذير من البدع.

لقد لاحظ الإمام محمد الخضر –رحمه الله– انتشار الكثير من البدع المخالفة للشرع في زمنه، فأراد تحذير الأمة الإسلامية منها وتذكيرهم بأن كل قول أو فعل ليس على هديه ﷺ فهو مردود من خلال تفسيره لقوله ﷻ: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ}البقرة:59 قائلا: " ومأخذ العبرة من الآية: أن من أمره الله بأن يقول قولا، فترك القول الذي أمر به، وأتى بقول آخر مكانه، يدخل من قبيل الظالمين، ويتعرض بنفسه لأن يصيبه عذاب أليم. ومِثْلُ القول في مجرى القياس الصحيح: الفعلُ...وكلا المغيرين لما أمر الله به من قول أو فعل ضال مستحق لأن يكون مصيره سوء العذاب؛ فإن النبي ﷺ يقول في خطبته كما ورد في "صحيح مسلم": (فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة) وفي رواية النسائي: (وكل محدثة بدعة، وكل بدعة في النار)"[2].

سادسا– تذكير المؤمنين بضرورة التحلي بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق:

إن العقيدة السليمة مصدر الآداب الجليلة والأخلاق الكريمة، لذلك كانت الدعوة إليهما من أسس الإصلاح والنهوض بالمجتمعات، وقد استغل محمد الخضر حسين تفسيره تذكيرا وحثا على التحلي بها في مخاطبة الله ﷻ أو في تعامل الناس مع بعضهم البعض.

ففي تفسيره لقوله تعالى: {قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}البقرة: 30 يذكر المؤمنين بضرورة التأدب في مخاطبتهم لمولاهم قائلا: "إن قول الملائكة لم يكن صادرا عن إنكار وإنما هو استكشاف الحكمة...وليس من أدب المؤمنين بأنه العليم الحكيم أن يسألوه –حين يأمرهم بشيء، أو يعلمهم بأنه سيفعل شيئا– عن حكمة ما أمر به أو سيفعله، بل شأنهم أن يتجهوا إلى استطلاع حكمة الأفعال والأوامر أنفسهم، فإذا أدركوها فقد ظفروا بأمنيتهم، وإن وقفت عقولهم دونها؛ ففي تسليمهم لقدر الله، وامتثالهم لأوامره الكافية في القيام بحق التكليف، والفوز برضا الله الذي هو الغاية من الإيمان به والإقبال على الطاعة"[3].

---

[1] _ أسرار التنزيل، محمد الخضر حسين، ص403- 404.

[2] _ المصدر نفسه، ص112.

[3] _ أسرار التنزيل، ص62.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي مواضع أخرى يدعوهم إلى جملة من الآداب والأخلاق في تعاملهم مع بعضهم، يقول في تفسيره لقوله تعالى: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ}الحديد: 13 "وفي الآية تنبيه لأدب جميل هو أن الإنسان يتجنب في مخاطباته الألفاظ التي توهم جفاء أو تنقيصا في مقام يقتضي إظهار مودة أو تعظيم"[1].

وبعد تفسيره لمفردات قوله تعالى: {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ}آل عمران: 159 قال: "وليعتبر في هذه الآية من يتولى أمرا يستدعي أن يكون بجانبه أصحاب يظاهرونه عليه، حتى يعلم يقينا أن قوة الذكاء وغزارة العلم وسعة الحياة وعظم الثروة، لا تكسبه أنصارا مخلصين، ولا تجمع عليه من فضلاء الناس من يثق بصحبتهم إلا أن يكون صاحب خلق كريم من اللين والصفح والاحتمال...وتمييز موضع اللين من موضع الشدة يرجع إلى ذكاء الإنسان، وإدراكه لطبائع الأشخاص الذين ينالونه بمكروه"[2].

وخلاصة ذلك كله أن الشيخ –رحمه الله– أدرك أهمية غرس العقيدة الإسلامية في نفوس أهل زمانه، وأثرها الفعال في إصلاح أحوالهم، فجعل تفسيره سبيلا لتقويم العقائد وتهذيب السلوك، مثبتا أن القرآن الكريم يلائم حاجة كل عصر ويعالج قضاياه.

الفرع الثاني: الجانب السياسي.

عُرف الخضر باهتمامه البالغ بالسياسة الشرعية والتي عدها شطر من الإسلام قائلا: "ثلاث حقائق كل واحدة منها شطر الإسلام: عموم رسالة محمد ﷺ، واشتمال شريعته بنصوصها وأصولها على ما لا يتناهى من الوقائع، وكون هذه الشريعة أحكمَ ما تساس به الأمم، وأصلحَ ما يقضي به عند التباس المصالح، أو التنازع في الحقوق...فمن أنكر واحدة منها، فقد ابتغى في غير هداية الإسلام سبيلا"[3].

وقد عني –رحمه الله– بتنزيل الآيات على الواقع السياسي في عصره في عدد من المواضع في تفسيره وهي كما يلي:

أولا– مبدأ الشورى من أصول السياسة الرشيدة :

قرر الشيخ في تفسيره لآيات القرآن الكريم هذا الأصل العظيم بأبلغ الوجوه، في زمن غُيب فيه أخذ مشورة أهل العلم، تذكيرا بهذا المبدأ في نظام الحكم الذي به يصلح حال الأمة وردا على من زعم أن النبي ﷺ توفي ولم يضع قاعدة للخلافة[4].

فعند تفسيره لقوله تعالى {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}آل عمران: 159 قال: "وهذه الآية قررت أصلا عظيما من أصول السياسة الرشيدة، وهو: أن لا يستبد ولي الأمر في تصريف الأمور دون أن يأخذ رأي أولي العلم، وقد قررت هذا الأصل بأبلغ وجه؛ إذ وجهت الأمر فيه إلى أكبر الناس عقلا، وأعرفهم بطرق المصالح، وأقلهم حاجة إلى الاستعانة برأي غيره، وهو أكمل الخليقة –صلوات الله عليه–، فليس لأحد بعد هذا أن يتخيل أنه في غنى عن المشاورة بما أوتي من كمال العقل وسداد الرأي"[5].

فيظهر من خلال نص كلامه هذا أنه –رحمه الله– استطاع أن يربط بين ما قررته الآية الكريمة وبين حال الساسة في زمنه الذين تخلوا عن أصل من أصول الدين ألا وهو مشورة أهل العلم والرأي، ليعدد بعدها فوائدها قائلا: "وفي الشورى: استبانة الرأي الحق من بين آراء متعددة، وفيها: تطييب خواطر من يهمهم أن يدبر الأمر على بصيرة، وفيها: تأليف قلوبهم؛ بما في مراجعة ولي الأمر لهم من التنبيه على رفعة أقدارهم في

---

[1] _ المصدر نفسه، ص191.

[2] _ المصدر نفسه، ص391.

[3] _ رسائل الإصلاح، ص185- 186.

[4] _ وهو طه حسين في كتابه: "في الشعر الجاهلي" وقد رد عليه الشيخ في كتاب: "نقض كتاب في الشعر الجاهلي".

[5] _ أسرار التنزيل، ص393.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نظره"[1].

ثم نبه –رحمه الله– إلى أن المشورة ليس فيها وإن ظنّ ظآن ما يدل على ضعف الرأي والاحتياج إلى الغير، وحتى وإن سلمنا وقلنا إنها تدل على النقص فإن الفوائد التي تحصل من الاستشارة والمشورة تغطي ذلك النقص المزعوم كلّه.

ثانيا– جهاد العدو المحارب وسيلة التمتع بالحياة الطيبة:

تزامنت الفترة التي عاشها محمد الخضر مع بسط قوات الاحتلال سيطرتها على معظم البلاد الإسلامية، وأخذت قضية جهاد العدو ورفض العيش تحت رحمته حيزا كبيرا من تفسيره وتنزيله الآيات على واقعه، بل جعلها السبيل الوحيد الذي يحي به المؤمنون حياة طيبة في تفسيره لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}الأنفال: 24 يقول: "ومما يحي المؤمنين الحياة الطيبة: جهاد العدو المحارب، ذلك أن العدو إذا استولى على الأمة، قبض على زمام أمرها بيد غاشمة، وأقام بينها وبين القوة والعزة حواجز، فلا تعيش إلا في ضعف وذلة وند العيش، وقتال العدو يدفع عنه الكارثة، ويمكنها من أن تفوز بسلامة أعراضها وأموالها، وتتمتع بالحرية في إدارة شؤونها، وابتغاء وسائل رفعتها، وإقامة شعائر دينها، والتقاضي إلى أحكام شريعتها، وذلك عين الحياة الطيبة في الدنيا، ووسيلة الحياة الطيبة في الأخرى"[2].

فهذا النص من كلام محمد الخضر –رحمه الله– فيه دعوة واضحة منه إلى قتال العدو، فبعد أن كشف عيوب الاستعمار وأساليبه في السيطرة على البلاد المستعمرة وإذاقتها الذل والهوان بيّن السبيل إلى التخلص من ذلك كله والذي لا يتأتى الجهاد في سبيل الله.

ثالثا– تحدثه عن حال حكام عصره، وكيدهم للعالم الناصح:

ذم محمد الخضر حسين حال بعض الحكام في زمنه، حيث يقودهم كبريائهم وإتباعهم لأهوائهم إلى الإعراض و الكيد للعالم الأمين في نصيحته لهم، حيث شبه حالهم بأولئك القوم من بني إسرائيل الذين كانوا يقتلون النبيين بغير الحق وأحسن ربطها بواقعه.

يقول تفسيره لقوله ﷻ: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ}البقرة: 61 قال: "وكان هؤلاء القوم من بني إسرائيل؛ لإغراقهم في الكفر والفساد، يقتلون النبيين حيث يأمرونهم بمعروف، أو ينهونهم عن منكر...ويشبه هؤلاء الطغاة الأمراء الذين ينحطون في أهوائهم، وتأخذهم العزة بالإثم، حيث يُسدي لهم العالم الأمين النصيحة في أمر يخرجون به عن حدود الشريعة الغراء، فيضمرون له البغضاء، ويتأهبون لأن يلحقوا به الأذى ما استطاعوا"[3].

وفي مقابل ذلك نجده في حديثه عن قصة آدم عليه السلام وما استنبط منها من عبر وهدايات سخرها لعلاج الكثير من مشكلات عصره يُلمح إلى الصفات التي ينبغي على الحكام التحلي بها تجاه من يسدي لهم النصيحة في سياق كلام طويل قيّم نفيس، قائلا: "ويستفيد منها الرئيس الأعلى كيف يفسح المجال لمرؤوسيه المخلصين يجادلونه في أمر يرد قضاءه، ولا يزيد على أن يبين لهم وجهة نظرة في رفق، وإذا تجاوزوا حد الأدب اللائق به، راعى في عتابهم ما عرف فيهم من سلامة القلب، وتلقى أوامره بحسن الطاعة"[4].

الفرع الثالث: الجانب الاجتماعي.

---

[1] _ المصدر نفسه، ص393.

[2] _ أسرار التنزيل، ص399.

[3] _ أسرار التنزيل، ص120- 121.

[4] _ المصدر نفسه، ص78.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ركز محمد الخضر في دعوته الإصلاحية على الجانب الاجتماعي، لأن إصلاح المجتمع إصلاح للأمة بكاملها، فكانت قضاياه من أكثر القضايا التي عُني تفسيره بمعالجتها من خلال تنزيل الآيات عليها وربطها بالنصوص القرآنية استدلالا عليها.

وقد جمعنا هذه المواضع، وتفصيلها كالآتي:

أولا – تألم الخضر على واقعه الذي يعاني شؤم معاص عم بلاؤها:

كان محمد الخضر حريصا على إصلاح مجتمعه، الذي انتشر فيه الكثير من المعاصي والذنوب، وعُطل فيه إقامة وسائل الإصلاح من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها فنجده في تفسير لقوله تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً}الأنفال: 25 يُنزل الآية على واقعه فيفسر الفتنة التي تشمل الظالمين وغيرهم بأبرز العلل التي يشتكيها عصره أو بما تأتي به من وبال داعيا إلى اتقاء الفتنة باتقاء أسبابها فيقول: "والفتنة التي يعم وبالها مرتكبيها وغيرهم: ما كان من نحو إقرار المنكر، وتفرق الكلمة وإهمال التعليم الديني والقعود عن دفاع العدو، فإن شؤم عاقبة هذه المعاصي لا يخص الذين ظلموا، وهم المقرون للمنكر، والعاملون لانفصام عرا الاتحاد، والمهملون للتربية الدينية، والقاعدون عن الجهاد تكاسلا، بل يتعداهم إلى غيرهم من نحو الأطفال والمستضعفين من الرجال والنساء، وهذه المعاصي تسقط الأمم من عليائها...وتفرق الكلمة بسبب التخاذل، وعدم التعاون على فعل الخير ودفع السوء، وذلك ما يلقي بالأمة في بؤس وهوان، وترك تربية النشء تربية دينية يأتي بعواقب مشؤومة، وأي عاقبة أشأم من أن يتولى أمور الأمة ملاحدة يسوسونها على ما توحيه إليهم أهوائهم، ويعطلون ما استطاعوا أحكام شريعتها، والقعود عن الدفاع سبب وقوع الأمة بأجمعها تحت سلطان عدو يذيقها من عذاب الهون ما تؤثر من أجله الموت على الحياة.

ويصح أن تفسر الفتنة في الآية بما تأتي به تلك المعاصي من وبال؛ كولاية الفجار التي يأتي بها إهمال التربية الدينية، وكقهر العدو للأمة الذي يأتي به ترك إعداد القوة، أو القعود عن الدفاع، واتقاء الفتنة على هذا الوجه يحصل باتقاء أسبابها"[1].

فقد دعا الخضر إلى الإصلاح بإقامة وسائله من العبودية لله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحصين النعم بالطاعة لأن "مخالفة ما أمر الله قد تكون سببا لزوال النعمة، وذلك ما يدعوه إلى تحصينها بالتزام الطاعة في كل حال"[2]، فإذا تحقق كل ذلك للأمة تحقق لها الأمن والأمان والعيش الرغيد في سلام.

ثانيا– حث المسلمين في زمانه على الإنفاق:

ذكّر محمد الخضر أهل زمانه بأحد أعظم وسائل رقي الأمم وسلامتها من الموبقات ألا وهو الإنفاق في سبيل الله، منوها بشأن المنفقين ومكانتهم في القرآن الكريم، يقول في تفسيره لقوله تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}البقرة:3"وعني القرآن الكريم بمدح المنفقين، والحث على الإنفاق؛ إذ كان من أعظم الوسائل إلى رقي الأمم وسلامتها من كوارث شتى؛ مثل: الفقر، والجهل، والأمراض المتفشية، فببذل المال تسد حاجات الفقراء، وتشاد معاهد التعليم، وتقام وسائل حفظ الصحة، إلى ما يشاكل هذا من جلائل الأعمال..."[3].

وفي هذا النقل يظهر كيف نزل الخضر الآية على واقعه، فقد شخص ما يشتكيه عصره من فقر وجهل وأمراض ثم وصف العلاج القرآني لها

---

(1) _ أسرار التنزيل، ص400- 401.

(2) _ المصدر نفسه، ص78.

(3) _ المصدر نفسه، ص18- 19.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فجعلها نماذج لمجالات الإنفاق وجعل بذل المال فيها من جلائل الأعمال.

ثالثا– ذم العيش تحت رحمة العدو:

شنع الإمام على بعض المسلمين الذين رضوا بالعيش تحت سلطة عدو غاشم، من شدة حرصهم على الحياة، قائلا في تفسيره لقوله تعالى: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ}البقرة: 96 "{عَلَى حَيَاةٍ} يُشعر بأنهم يحرصون على مطلق حياة، ويفهم حرصهم على الحياة الطويلة بالأَولى.

وشدة الحرص على الحياة نفسها، ملقية في الجبن، واحتمال الضيم، ولا تقع أمة تحت سيطرة عدوها، وتظل أعناقها خاضعة له إلا من شدة حرصها على أن تحيا، ولو كما يحيى الأنعام"[1].

ويُفهم من كلامه هنا أنه يغمز تلك الفئة التي ظهرت في زمانه ورضيت بالعيش مع الاستعمار وانبهرت بالحضارة الغربية، وافتتنت بزخرفها البالي ورغدها الفاني.

رابعا – التحذير من جريمة الرشوة، التي شاعت في التعامل بين أهل عصره:

انتشر في زمن الخضر الكثير من الآفات الاجتماعية وخاصة في باب المعاملات، ولقد اعتنى الإمام في ثنايا تفسيره بمعالجة الكثير منها، ومن هذه الآفات جريمة الرشوة حيث بين حرمتها وحذر الناس من تعاطيها، لما فيها من الفساد العظيم والعواقب الوخيمة.

يقول في تفسيره لقوله تعالى: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}البقرة: 79.

"الكسب: اجتلاب النفع أو الضرر. وهذا وعيد على أخذ الأموال من الأتباع المقلدين لهم بغير حق. والآية تدل على تحريم أخذ المال بالباطل؛ كالرشوة، وإن أخذها برضا المعطي"[2].

وفي تفسيره لقوله تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}البقرة: 188 قال: "ومن المحتمل القريب أن يفهم من نظم الآية: تحريم إعطاء مال للحاكم على وجه الرشوة. والمعنى: ولا تدلوا بأموالكم –أي: بعضها– إلى الحكام؛ لتتوصلوا بأحكامكم الجائرة إلى أكل فريق من أموال الناس بغير حق.

ولا غرابة في أن يعنى القرآن الكريم في سياسته الرشيدة بالتحذير من جريمة الرشوة؛ فإنها المعول الذي يهدم صرح العدل من أساسه، وبها تفقد مجالس القضاء حرمتها، ولا يبقى للجالسين على كراسيها كرامة.

وللرشوة شبَه بالسرقة؛ لأنها تؤخذ من يد مالكها خفية. وشبه بالغصب؛ لأنها تؤخذ منه تحت سلطان القضاء"[3].

خامسا– التذكير بحكمة القصاص وأثره النافع في كل عصر:

أوجب الله الحدود عقوبة على جملة من الفواحش والجرائم حفظا لمصالح العباد، وعلى رأسها القصاص وهو "أن يفعل بالفاعل مثل ما فعل"[4]

---

[1] _ أسرار التنزيل، ص176.

[2] _ المصدر نفسه، ص144.

[3] _ أسرار التنزيل، ص349- 350.

[4] _ التعريفات، الجرجاني، ص55.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لما فيه من إخلال بحرمة الدماء وهي من الكليات الخمس التي اتفقت الكتب السماوية على حفظها ردعا للمجرم، وقد تعالت صيحات من ذوي الأحاسيس المرهفة في العصر الحديث تدعوا إلى تعطيل عقوبة القصاص "الإعدام" لما فيها من الرجعية وعدم مسايرة الواقع المعاصر فهي على قولهم عقوبة قاسية ووحشية خاصة بزمن معين ولسنا في حاجة إلى تطبيقها احترما لمواثيق حقوق الإنسان...وقد تصدى الشيخ لهؤلاء المنكرين لمصلحة القصاص واصفا إياهم بالعيش بين الناس بعقول غير سليمة فالعقل السليم يقبل ما يثبته النص الصحيح، ومذكرا بالحكمة منه ففي تفسيره لقوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }البقرة: 179 يقول: "وخص النداء بأولي الألباب، مع أن الخطاب بحكمة القصاص شامل لهم ولغيرهم؛ لأنهم الذين يتدبرون عواقب الأمور، ويعرفون قيمة الحياة، ويقدرون حِكَم التشريع قدرَها. وفي هذا النداء تنبيه على أن من ينكرون مصلحة القصاص، وأثره النافع في تثبيت دعائم الأمن، يعيشون بين الناس بعقول غير سليمة. ولا يزال الناس يشاهدون في كل عصر ما يثيره القتل في صدور أولياء القتلى من أحقاد طاغية، ولولا أن القصاص يخفف من سطوتها، لتماد بهم في تقاطع وسفك دماء دون الوقوف عند حد"[1].

فقد بين –رحمه الله– أن النداء إنما خُصّ بأولي الألباب مع أن الخطاب لهم ولغيرهم وذلك راجع إلى كونهم يحسنون تدبر عواقب الأمور، أي: يقدرون ما يحمله القصاص من مراعاة لمصلحة العباد بحفظ حياتهم، وهذا من الفهم الدقيق والتدبر العميق لكتاب الله الذي امتاز به الخضر.

كما نجده في موضع آخر من تفسيره ينبه إلى واجب الأمة تجاه حدود الله، فيقول: "والقرآن الكريم يوجه الخطاب في عقوبات الجنايات كالقصاص إلى الأمة على أن يقيمها الرئيس الأعلى، أو من ينوب عنه. وتوجيه الخطاب إلى الأمة يشعر بأن عليها جانبا من التبعة إذا أهمل أولو الأمر هذه العقوبات، أو لم يقيموها على حق، ويشعرهم بأنهم مطالبون بعمل ما يساعد الحكام على وضع العقوبات في حدود العدل؛ كتسليم الجاني، وأداء الشهادة عليه في صراحة وأمانة"[2].

وفي الختام يمكن القول أن ملامح الإصلاح بدت جلية في "أسرار التنزيل" وذلك من خلال عناية الخضر بمعالجة وتحليل مشكلات عصره، ومن ثم وصف العلاج القرآني لها فقد كانت بصمته وآثاره الإصلاحية والتوجيهية على الواقع ظاهرة مرتبطة بالوحي بعيدة عن الفكر المجرد الذي يذمه قائلا: "ثم إن العلم الذي يحصل من طريق النظر والفكر قد يعتريه خلل، ويحوم عليه خطأ، فيقع صاحبه في الإفساد من حيث أنه يريد الإصلاح؛ بخلاف العلم الذي يتلقاه الإنسان من تعليم الله؛ فإنه مطابق للواقع لا محالة، ولا يخشى من صاحبه أن يحيد عن سبيل الإصلاح...ومن هنا كانت السياسة الشرعية أرشد من كل سياسة، والأحكام النازلة من السماء أعدل من القوانين الناشئة في الأرض"[3].

خاتمة:

بعد هذه الجولة السريعة في رحاب تفسير محمد الخضر حسين وتنزيله الآيات على واقعه، يمكن تسجيل جملة من النتائج أهمها:

* أن محمد الخضر حسين أحد رواد الإصلاح في العصر الحديث في العالم الإسلامي، اتخذ من آيات القرآن الكريم وسيلة لعلاج ما يعانيه عصره من آفات.
* جُمع في "أسرار التنزيل" معظم تراث الشيخ التفسيري، وقد حوى علما غزيرا يدل على مكانة صاحبه، كما جاء حافلا بالمواضع التي نزل فيها المفسر معاني الآيات على الواقع المعاصر له.

---

[1] _ أسرار التنزيل، ص323.

[2] _ أسرار التنزيل، ص319.

[3] _ المصدر نفسه، ص66.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

* اجتهد المفسر –رحمه الله– في ربط هدايات القرآن بالواقع والحياة التي يعيشها الناس في عصره، ولاشك أن هذا من أهم ما ينبغي على من فسر القرآن الاهتمام به.
* تعددت الجوانب التي نزل فيها الشيخ الآيات على واقعه وشملت الجانب العقدي، السياسي والاجتماعي.
* أدرك المفسر أهمية ربط الناس بكتاب الله تعالى وحثهم على العمل به، وتمكن من توظيف التفسير لإصلاح المجتمع.

قائمة المصادر والمراجع:

❖ القرآن الكريم –مصحف المدينة المنورة–.

1. الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، ط15، 2002م، دار العلم للملايين، بيروت: لبنان.
2. تاريخ الجزائر الثقافي، سعد أبو القاسم، ط1، 1998م، دار الغرب الإسلامي، بيروت: لبنان.
3. التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، ت: إبراهيم الأبياري، ط1، 1405هـ، دار الكتاب العربي، بيروت: لبنان.
4. تفسير محمد الخضر حسين لآي القرآن وملامح الإصلاح فيه، بن ديمية جيلالي، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، الجزائر، 1434هـ/ 1435هـ، 2013م/ 2014م.
5. تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم، يحيى بن محمد الزمزمي، مجلة البحوث والدراسات الإسلامية، العدد الرابع، السنة الثانية.
6. تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين –دراسة وتطبيق–، عبد العزيز الضامر، ط1، 1428هـ/ 2007م، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم.
7. معجم البلدان، ياقوت الحموي، د.ط، 1397هـ/ 1977م، دار الصادر، بيروت: لبنان.
8. موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، جمع وضبط: علي الرضا الحسيني، ط1، 1431هـ/ 2010م، دار النوادر، دمشق: سوريا.

. أسرار التنزيل –تفسير آيات قرآنية كريمة–.

. بلاغة القرآن.

. ترجمة الإمام محمد الخضر حسين.

. رسائل الإصلاح.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com